رسائلُ البيَّاتيّ إلى الإمام الشَّافعيّ: دراسة تحليليَّة

مصطفى محمد رزق السواحلي[1]

ملخص

حاول بعضُ الشُّعراءِ العربِ في القرن العشرين تحديثَ الشعر العربيّ شكلًا ومضمونًا، فظهرتْ من حيث الشَّكل أنماطٌ جديدةٌ لعلَّ أبرزَها الشِّعرُ الحُرُّ، أو قصيدةُ التَّفعيلة، وتجلَّتْ من حيث المضمون آليَّاتٌ جديدةٌ للتعبير عن الفكرة، مثل: الرَّمز والأسطورة والقناع والمفارقة... وغيرها. وقد كان للشَّاعر العراقيِّ عبد الوهاب البيَّاتيّ (1926-1999م) يدٌ طُولى في هذا التحديث الشَّعريِّ نظريًّا وتطبيقيًّا، حيث أمعن في استدعاء الشخصيَّات التاريخيَّة بكلِّ أنماطها، واتخذ منها قناعًا ليعبِّر من ورائه عن تجاربه الذاتيَّة، ويعالجَ من خَلْف سِتاره عذاباتِ الإنسانِ في العصر الحديث. ومن بين القصائد التي توارى فيها خلف شخصيَّة إسلاميَّة تاريخيَّة قصيدته: رسائل إلى الإمام الشَّافعيّ، التي نشرها عام 1970م. ويحاولُ هذا البحثُ الوقوفَ على تجربته في استدعاء شخصيَّة الإمام الشَّافعيّ، وذلك لبيان مدى توفيقه في اختيار هذه الشخصيَّة التي لا نعرف شاعرًا آخر قام باتخاذها قناعًا لتجربته الشعريَّة، ومدى إجادته في التعبير عن فكرته التي توخَّت القصيدةُ إيصالها إلى الـــمُتلقِّي، وذلك من خلال المنهج الوصفي التحليليّ، وقد انتهى البحث إلى عدد من النتائج أهمُّها: أنَّ هذه القصيدة مِنْ أضعفِ قصائد البيَّاتيّ التي وظَّف فيها تقنية القناع، والتي استدعى فيها شخصيَّة تراثيَّة، حيث وقع في عدَّةِ مزالق فنيَّة أبرزها: بُعْدُ التأويل، فالفكرة الرئيسة لقصيدة البيَّاتيّ هي قضيَّة الضياع والشرود على المستويين العامِّ والخاصِّ، وهي مسألةٌ لا نجد لها صدًى في حياة الإمام الشَّافعيّ خاصَّةً، أو في عصره عامَّةً، والإسرافُ في تكديس شخصيَّات لا علاقة لها بالموضوع، وسطحيَّةُ القناع، حيث

[1] الأستاذ بكلية اللغة العربيَّة، جامعة السلطان الشريف عليّ الإسلامية، بروناي دار السلام.

لم يأخذْ من شخصيَّة الإمام الشَّافعيّ فيما نعتقد سوى العنوان فحسب، والغموضُ الشديد الذي يجعل من قصيدة البيَّاتيّ المدروسة تحدِّيًا أمام غير المتمرِّسين بقراءة الشعر العربيّ الحديث.

الكلمات المفتاحية: الإمام الشَّافعيّ، عبد الوهاب البيَّاتيّ، القناع الأدبيُّ، الشخصيَّات التراثيَّة.

توطئة

حاول بعضُ الشُّعراءِ العربِ في القرن العشرين تحديثَ الشعر العربيّ؛ حيث رأوه يسير في شكله ومضمونه على وتيرةٍ واحدةٍ تقريبًا منذ العصر الجاهليّ حتى مطلع العصر الحديث، اللهمَّ إلا أطيافًا يسيرةً من التطوير والتجديد التي كانت تقتصر على الشكل غالبًا، دون أن تمسَّ جوهر الشعر نفسه، وقد سلك الشُّعراءُ في العصر الحديث في التجديد مسالك شتَّى، لعلَّ أبرزها من ناحية الشكل تحرير الشعر من قيود الوزن والقافية، فظهر ما يُسَمَّى بالشِّعر الحُرِّ، أو قصيدة التفعيلة، ثم ظهرت مؤخرًا قصيدة النثر، ولعلَّ أبرزها من حيث المضمون ابتكار آليات جديدة للتعبير عن الفكرة، مثل: الرَّمز والأسطورة والتَّجريد والمعادل الموضوعيّ والقناع والمفارقة والدِّراما والتَّشكيل البصريّ... وغيرها.

والواقع أنَّ الشعر العربيّ الحديث قد طار في عوالم التجديد بجناحين من أهمِّ أجنحته قديمًا وحديثًا، هما: العراق ومصر، حيث ظهرت ثلَّة من كبار الشعراء العراقيِّين الذين جدَّدوا في شكل الشعر العربيّ ومضمونه على رأسهم: نازك الملائكة (1923-2007م)، وبدر شاكر السيَّاب (1926-1964م)، وعبد الوهاب البيَّاتيّ (1926-1999م) وغيرهم، وفي الوقت نفسه ظهرت ثلَّةٌ موازيةٌ من الشعراء المصريين على رأسهم: صلاح عبد الصبور (1931-1981م)، ومحمد عفيفي مطر (1935-2010م)، وأمل دنقل (1940-1983م)... وغيرهم من هذين القُطْرَيْن العريقَيْن ومن غيرهما، والبلدان متشابهان في كثيرٍ من الوجوه تاريخيًّا وحضاريًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا، ولا غرو فهما جناحا الحضارة الإنسانيَّة منذ أقدم العصور، حيث نشأت أقدمُ الحضارات الإنسانيَّة على ضفاف النيل في الجناح الغربي، وعلى ضفاف دجلة والفرات في الجانب الشرقي، وقد توازت فيهما نشأة الكتابة لأول مرة في تاريخ البشرية، بالإضافة إلى أنَّ اثنين من هذا الثلاثيِّ العراقيِّ قد عاشا في القاهرة مدةً طويلة.

وقد كان للشَّاعر العراقيِّ عبد الوهاب البيَّاتيّ يدٌ طُولى في هذا التحديث الشَّعريِّ، فهو من أكثر الشعراء الذين أسهموا في تحديثِ القصيدةِ العربيّة شكلا ومضمونًا، حيث استخدم تقنيَّاتٍ تعبيريَّةً مبتكرةً في التعبير عن تجاربه الشعريَّة، تأتي تقنية القناع على رأسها، حيث تحدَّث عنها نظريًّا في كتابه عن تجربته الشعريَّة، وفي كثيرٍ من الحواراتِ التي دارتْ معه، ونفَّذَها تطبيقيًّا في عشراتٍ من قصائده.

ويحاولُ هذا البحثُ الوقوفَ على تجربته في استدعاء شخصيَّة الإمام الشَّافعيّ، حيث كتب إليه قصيدة بعنوان: (رسائل إلى الإمام الشَّافعيّ)، وذلك لبيان مدى توفيقه في اختيار هذه الشخصيَّة التي لا نعرف شاعرًا آخر قام باتخاذها قناعًا لتجربته الشعريَّة، ومدى إجادته في التعبير عن فكرته التي توخَّت القصيدة إيصالها للمتلقِّي.

المبحث الأول: ظاهرة الرَّسائل إلى قبر الإمام الشَّافعيّ

في عام 1965م نشر عالم الاجتماع المصريّ الشهير د. سيد عويس دراسة متميزة وغريبة عنوانها: "من ملامح المجتمع المصريّ المعاصر: ظاهرة إرسال الرسائل إلى ضريح الإمام الشَّافعيّ"، وقد حظيت الدراسة بكثيرٍ من الاهتمام الإعلاميّ عبر وسائل الإعلام المقروءة والمرئيَّة، وبثناءِ عددٍ كبير من المفكِّرين، وتُوِّجَ ذلك كلُّه بحصول الكاتب عن دراسته تلك على جائزة الدولة التشجيعية عام 1966م.

وقد رصد الكاتب في هذا الكتاب ظاهرة قيام بعض الأشخاص بإرسال رسائل بالبريد إلى ضريح الإمام الشَّافعيّ، يشكون فيها بعض أحوالهم، وما يواجهونه من عنت وظلم، أو يطلبون منه فيها قضاء بعض الحاجات، وهي مسألةٌ مستغربةٌ لا نعرف لها نظيرًا في التاريخ القديم، ولا في ثقافات الأمم المجاورة أو البعيدة، والأنكى أنَّ عدد الرسائل كبيرٌ جدًّا، مما يستحقُّ وصفها بالظاهرة، حيث رصد الكاتب 163 رسالة بريدية موجهة إلى ضريح الإمام الشَّافعيّ خلال ست سنوات فقط (1952-1958م)، ناهيك عن عدد كبيرٍ من القصاصات كان الزوَّار يلقونها في

الضريح مباشرة، وليس عن طريق البريد المعتاد، والأعجب أنَّ بعض أصحاب هذه الرسائل يذكر اسم المرسِل وعنوانه، وأمَّا المرسَل إليه فيكتب: إلى حضرة شيخنا الكبير العالم العلَّامة مذهبًا الإمام الشَّافعيّ رضي الله عنه وأرضاه، أو إلى: حضرة سيدي صاحب المقام الرفيع ومولاي الإمام الشَّافعيّ رضي الله عنه، إلى غيرها من عبارات الثناء والتقريظ، ثم يقول: نشرف بعرض الآتي، ويذكر شكوى مفصلة كتلك التي تُقدَّم إلى الجهات الأمنيَّة، وقد انتهى الباحث إلى جملة من النتائج أهمها:[1]

(1) أنَّ هذه الظاهرة متجذرةٌ في المجتمع المصري، وممتدَّةٌ عبر الزمان والمكان، على الرغم من رفض علماء الدين إرسال مثل هذه الرسائل، واعتبارها مظهرًا من مظاهر التوسُّل غير المشروع.

(2) أنَّ أصحاب هذه الرسائل كانوا يتوخون شهورًا وأيامًا مباركةً لإرسال هذه الرسائل، كرمضان وربيع الأول وذي الحجَّة ونحوها.

(3) أنَّ معظم الرسائل قادمةٌ من أعماق الريف المصري، وأغلب أصحابها ممن يشتغلون بالأعمال الزراعيَّة، بدليل أن معظم الرسائل مكتوبة بالعاميَّة المصرية، وفيها عدد غير قليل من الأخطاء، مما يدلُّ على شيوع الأميَّة في تلك الفترة، فضلا عن الجهل بالحكم الشرعيِّ لمثل هذا السلوك.

(4) أنَّ مرسلي هذه الرسائل يعتقدون أنَّ الإمام الشَّافعيّ حيٌّ يرزق على الرغم من مرور نحو اثني عشر قرنًا على وفاته، ولكنَّه في خيالهم رجلٌ له سلطان، وقادرٌ على القيام بأمور من اختصاص وزارات الداخلية أو العدل أو العمل أو الصحَّة وغيرها، وهي مكانة ترفعه فوق جميع الملوك والحكام، وتقربه من منزلة رب الأرباب سبحانه وتعالى؟!

(5) أنَّ معظم الشكاوى تدور في فلك التظلُّم من الاعتداء على الأموال، أو الاعتداء على الأشخاص، وبعضها شكوى في نطاق العمل أو نطاق الأسرة.

---

(1) عويس، سيد. (1978م). **رسائل إلى الإمام الشَّافعيّ** (ظاهرة إرسال الرسائل إلى ضريح الإمام الشَّافعيّ: دراسة سوسيولوجيَّة). ط2. القاهرة، الكويت، أمستردام: دار الشايع. ص: 374-381.

(6) أنَّ عددًا كبيرًا من هذه الرسائل تضمَّنَ مطالبَ غريبةً، ومن العجيب أنَّ أكثرها يدور في فلك الانتقام من المشكو في حقِّه، كالموت، أو إحداث إصابات جسيمة بشخصٍ ما كالشلل والعمى، أو تخريب الديار، أو تشتيت الشمل، أو التفريق بين الزوج وزوجه...وغيرها من الأمور التي تظهر ما في نفوسهم من غلٍّ وحقدٍ ومرارة وضياعٍ.

(7) أنَّ معظم هذه الرسائل تحكي عن جرائم كان من المنطقي أن توجَّه إلى جهات الاختصاص في وزارتي الداخليَّة والعدل، ولكنَّ توجيهها إلى ضريح الإمام الشَّافعيّ يدل على سيطرة الأفكار الغيبيَّة على المجتمع في ذلك الوقت!

فهل كانت هناك علاقةٌ بين نشر هذه الدِّراسة وكتابة الشَّاعر عبد الوهاب البيَّاتيّ قصيدته: رسائل إلى الإمام الشَّافعيّ؟ هذا ما يتوخَّى البحثُ الوقوف عليه.

المبحث الثاني: عبد الوهاب البيَّاتيّ ورسائله إلى الإمام الشَّافعيّ

أولا: ترجمته: [1]

هو الشَّاعر عبد الوهاب أحمد البيَّاتيّ، ولد في ريف بغداد عاصمة العراق في التاسع عشر من ديسمبر 1926م، نشأ في بغداد في محلة "باب الشيخ" بالقرب من ضريح الشيخ: عبد القادر الجيلاني، وتلقى تعليمه فيها حتى حصل على الليسانس في اللغة العربيّة وآدابها من كلية دار المعلمين عام 1950م، وعمل في التدريس حتى عام 1953م، ثم عمل بالصحافة لمدة عام بمجلة "الثقافة الجديدة"، لكنَّها أغلقت، وفُصِل

(1) من مصادر ترجمته التي اعتمدت على المعلومات الورادة فيها: آل جعفر، خالد. (1995م). **عبد الوهاب البيَّاتيّ: السيرة الذاتيَّة والأدبيَّة**. عمان، دار الشروق: مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات. ع: 5. ص: 31-33. خليل، أحمد خليل. (2001م). **موسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين**. بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر. ج: 1، ص: 185-189. الجبوري، كامل سلمان. (1424هـ/ 2002م). **معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م**. بيروت: دار الكتب العلمية. ج: 4، ص: 173-174. المنظمة العربيّة للتربية والعلوم والثقافة. (1425هـ/ 2005م). **موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين**. بيروت: دار الجيل. ج: 4، ص: 224-227.

من وظيفته، ثم اعتُقِلَ بسبب مواقفه الوطنيَّة، حيث عارض دخول العراق في "حلف بغداد"، وبعد الإفراج عنه ترك بلاده إلى دمشق، ثم بيروت، ثم القاهرة، حيث عمل صحفيًّا بجريدة "الجمهورية" في مصر عام 1956م. وبعد ثورة 14 يوليو 1958م عاد إلى وطنه العراق، فتولى إدارة التأليف والترجمة والنشر بوزارة المعارف، ثم عُين مُلحقًا ثقافيًّا لبلاده في "موسكو"، لكنَّه ترك العمل ليعمل أستاذًا بجامعة العلوم السوفيتية، ثم باحثًا علميًّا بمعهد شعوب آسيا، وقد استمرت إقامته في الاتحاد السوفيتي خمس سنوات (1959 – 1964م)، وخلالها أسقطت عنه الجنسية العراقيَّة عام 1963م، ثم عاد إلى مصر وأقام فيها ست سنوات (1964-1970م) حيث كان ضيفًا شخصيًّا للرئيس المصري: جمال عبد الناصر، ثم انتقل إلى إسبانيا ليعيش فيها عشر سنوات (1970-1980م) حيث عمل في المركز الثقافي العراقي بمدريد، ثم جعل يتنقل بين عدد من الدول العربيّة منها: مصر والمغرب والأردن ولبنان وسوريا التي استقرَّ فيها حتى وفاته عام 1999م، حيث أوصى أن يدفن في دمشق إلى جانب شيخه: محيي الدين بن عربي.

أصدر البيَّاتيّ أول دواوينه الشعريَّة "ملائكة وشياطين" في عام تخرجه (1950م)، وتوالت بعد ذلك دواوينه التي تجاوزت عشرين ديوانًا، بالإضافة إلى مسرحية: محاكمة في نيسابور، وكتب أخرى، وقد ترجم شعره إلى عدد كبير من اللغات.

ثانيًا: مكانته الشعريَّة:

مهما اختلف القارئ مع البيَّاتيّ بسبب أيديولوجيَّته التي ظلَّ ينتمي إليها حتى آخر أنفاسه، فلا خلاف في أنَّه رائد من رواد الشعر العربيّ الحديث، وأنه "محارب بسيف من نغم"، كما عنونَتْ صحيفةُ "الأهرام" المصريَّة مقالا عنه في 14 أغسطس 2016م، بمناسبة مرور 17 عامًا على رحيله، وأنَّه كان علامةً مميزةً في تاريخ الشعريَّة العربيّة لا يمكن تجاوزها أو إهمالها، وحسبه أنَّ ناقدًا كبيرًا في قامة الدكتور

إحسان عباس يكتب عنه كتابًا كبيرًا عنوانه: "عبد الوهاب البيَّاتيّ والشعر العراقي الحديث: دراسة تحليليَّة"، في عام 1955م، وهو أول وأهم عمل نقدي عنه، والشَّاعر ما زال في الثلاثين من عمره!

ويكفي في تلخيص مكانته الفكريَّة والأدبيّة ما كتبه عنه الدكتور زكي نجيب محمود في تقديم العدد (32) من مجلة الفكر المعاصر بقوله: «جاءت حياته التزامًا واعيًا وشريفًا بقضايا الحرية والتقدم، لا في وطنه العراقي وحده، بل في وطنه العربيّ بأسره، ولعل الجديد الذي يلفت النظر في شعر هذا الشَّاعر بصورة واضحة هو تطويره للشعر في دفع الحياة المعاصرة، وفي خدمة قضايا هذا العصر، بحيث أصبح الشعر على قلمه سلاحًا، يواجه به قوى الشر والدمار، وكل ما هو مضاد للحياة».(1)

وقد لخَّص أحد النقاد حياته في كلمتين: «الوطن والإنسان، فحياته التزام واعٍ وشريف بقضايا الحرية والتقدم في موطنه وفي الوطن العربيّ كله، وأشعاره تعبير رائعٌ ومجيدٌ عن مأساة اغترابه من أجل شرف الكلمة ومسئوليَّة الفنَّان... إنه من أولئك الشعراء الثوَّار الذين كفروا بأن يظلَّ الأدبُ والفنُّ صدًى للمجتمع والحياة، وآمنوا بوجوب أن يصبح الأدب قائدًا لحركة المجتمع، والفنُّ رائدًا لدفعة الحياة».(2)

وقد دارتْ حول شعره دراسات تفوقُ الحصر، يكادُ يجمعُ كُتَّابها على أنَّه من حملة لواء الحداثة الشعريَّة، وأنَّه من المبشرين بنهضة الشعر العربيّ الحديث، فلا جرم أنْ يقرنه كثير من النقاد بكبار الشعراء العالميين مثل: إليوت، وعمر الخيام، ولوركا... وغيرهم.

ثالثًا: رسائله إلى الإمام الشَّافعيّ:

(1) محمود، زكي نجيب. (1967م). **هذا العدد**. القاهرة: مجلة الفكر المعاصر. ع: 32. ص: 5.

(2) العشري، جلال. (1967م). **شاعر الالتزام والاغتراب**. القاهرة: مجلة الفكر المعاصر. ع: 32. ص: 5.

في عام 1970م نشر عبد الوهاب البيَّاتيّ ديوانه: الكتابة على الطين، متضمِّنًا قصيدته: رسائل إلى الإمام الشَّافعيّ، ثم نشرها بعد ذلك مُنفصلةً في مجلة "المعرفة" التي تصدر عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي، في سوريا، العدد 115، سبتمبر، 1971م، وربما أراد نشرها منفصلة أولا كما جرت العادة، ولكن تأخر نشرها في المجلة، فسبقت طباعة الديوان.

تتكون القصيدة من تسعة مقاطع، [1] يبدأ أولها بتصوير الإمام الشَّافعيّ كأنَّه طائرٌ من ذهب يطير بين قوارب الصيد؛ ليمسك ببرتقالة الشمس؛ إشارة إلى مكانته الراسخة في الذاكرة العربيّة والإسلاميَّة، ودوره في إنارة دروب الشريعة لعموم المسلمين، حيث يقول:

قوارب الصيد وبرتقالة الشمس على الأمواج

محفورة بالنار

وطائر من ذهب يغمس في الموج جناحيه ويهوي ميِّتًا عبر رمال الشاطئ الحمراء

= وفي المقطع الثاني يصوِّره في صورة نهر هائج يحطم السدود والجسور، وهو ما يشير إلى دوره في التجديد الفقهي، وثورته على كثيرٍ من التقاليد، حيث يقول:

قهرت في شبابه الجسد

لكنَّه كان كنهر هائج مأسور

حطَّم في اندفاعه السدود والجسور

= وفي المقطع الثالث يتحدث عن نفسه وعن آماله ورؤيته لأوطانٍ حرةٍ شريفةٍ صورها في صورة الورد واللحم الطريّ ومعجزات الفجر، حيث يقول:

متيمٌ قلبي بكل شيءٍ

---

(1) البيَّاتيّ، عبد الوهاب. (1995م). **الأعمال الكاملة**. بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر. ج: 2، ص: 240-243.

بجسد الوردة، باللحم الطريّ الحيّ
بالموت والبحر وروح الليل
ومعجزات الفجر

= وجاء المقطع الرابع سطرًا واحدًا يصور ثورته من أجل حرية قومه، فهو يطنُّ كما يطنُّ النحل الذي يهاجر من مكانه؛ ليجني الرحيق، ويحوله إلى شراب سائغ فيه شفاء للشاربين حيث يقول:

يطنُّ قلبي في قفيز النحل

= وفي المقطع الخامس يصور خيبة أمله في تحقيق آماله التي صورها في صورة سرب من الظباء في واحة خضراء، لكنها توارت عنه، حيث يقول:

صرخت في منازل مقفرة دارت بها الرياح
أكلت برتقالة الشمس، وفي دمي توضأتُ، وصليتُ إلى الصحراء
عمود نور لاح لي وواحة خضراء
يرتع في قيعانها سربٌ من الظباء
وعندما فوقت سهمي كي أصيب مقتلا منها ومن بقية الأشباح
توارت الواحةُ والظِّباء في السراب
وارتفع النور إلى السماء
واكتنفتني ظلمةٌ، وصاح بي صوت من القيعان

= والمقطع السادس يقع في سطرين فقط صور فيهما خيبة آماله في صورة تحمل مفارقة ساخرة بديعة، حيث يقول:

أتيت قبل موعد الوليمة
وبعد أن تفرق الضيوف

= ويستمر في المقطع السابع في تصوير خيبة آماله كذلك حيث يقول:

شطرت برتقالة الشمس إلى نصفين
وهبت نصفها غراب البين

ونصفها الآخر ألقيت به في البحر
فاشتعل البحر، ولكنَّ حبيبي لم يعدْ؛ لنجمع النصفين

= والمقطع الثامن يصور أحزانه على ضياع حلمه، حيث رمز له بالحسين الذي قضى في كربلاء بعد ثورته على الأمويين، وقد تجلى ذلك في مفردات الدموع التي غسل بها الحجر الأسود، ومواكب العزاء، حتى إنَّه لما لاحت له فراشة زرقاء صورها في صورة عائشة، محبوبة الخيَّام التي جعلها رمزًا للنقاء والطهارة، وجعلها محورًا لديوانه: بستان عائشة، ثم ناداها، لكنها لم تسمع نداءه، وهو ما ختم به المقطع قائلا:

ناديتها:
عائشة!
عائشة! لكنَّها لم تسمع النداء
و لم تر العاشق في جحيمه يزحف نحو النار
منتظرًا في آخر الأبواب

= وختم قصيدته بالمقطع التاسع الذي صور فيه رحلته في عالم الثورة برحلات الإسكندر الأكبر التي انتهت بعودته من الهند محمومًا، وبموته في "بابل" العراق، وهو في ريعان شبابه، وعندئذٍ لاحت له شارة الإمامة، وعلامة القيامة، حيث يقول:

قال دليلي، وبكى، وخضلت لحيته الدموع
وسقطت فوق زهور الأرض
فأصبحت حمراء، قال: إنَّها "علامة القيامة"
"وشارة الإمامة".

المبحث الثالث: قراءة فنيَّة في رسائله إلى الإمام الشَّافعيّ

أوَّلا: أقنعة البيَّاتيّ: يُعَدُّ القناع من أهم الوسائط التعبيريَّة التي أبدع الشعراء في العصر الحديث في استخدامها، والتعبير عن أفكارهم من خلف ستارها، والقناع عبارة عن «شخصيَّة تاريخيَّة في الغالب، يختبئ الشَّاعر وراءها؛ ليعبِّر عن موقفٍ يريده، أو لِيُحاكمَ نقائص العصر الحديث من خلالها». (1)

ويبدو أنَّ هذا الوسيط الفنيَّ الحديث قد فتح على القصيدة العربيّة شلاَّلا من الإبداع، وضخَّ في أوردتها دماءً جديدة، فسافرتْ في عوالم الأساطير، ونادمتْ شخصيَّات متعددة المشارب ما بين نبيٍّ مرسل مثل: عيسى وأيوب عليهما السلام، أو رمز تاريخيّ مثل: زرقاء اليمامة وأبي الهول وأخناتون، أو أديب متميِّز مثل: عنترة بن شداد والمتنبِّي وأبي العلاء المعريّ، أو صوفيٍّ هائمٍ مثل: بِشْر الحافي والحلاَّج وابن عربي، أو شخصيَّة من التراث الأسطوريّ مثل: سيزيف وسبارتكوس وعشتار، أو حتى شخصيَّة خياليَّة مثل: السندباد ومهيار الدمشقي... وغيرها.

وقد شاعت هذه الظاهرة في الأزمنة والبيئات التي يُصبِحُ فيها التعبير عن الرأي طريقًا إلى المنفى، أو بوابةً إلى المعتقل، أو سببًا للاتهام بالهَرْطقة، أو مُرادفًا للعقوق والخيانة، أو ذريعةً للقتل والتنكيل، وحيث تضيقُ الدنيا في عين الأديب الحرّ كأنَّها كِفَّة حابل، وحيث تُرَى أعوادُ المشانق منصوبةً لقادة الرأي، وحيث يَعَضُّ على السُّلطة مَنْ لا يَرْعَوِي عن قصف الأقلام، وتكميم الأفواه، فظهرت الأقنعة الرمزيَّة التي «تمنح الشَّاعر مجالا للتعبير، ليفصح عن أفكاره على نحوٍ فنيٍّ، يبعد القصيدة عن المباشرة والسطحيَّةِ من جهة، وينأى بالشَّاعر أحيانًا عن أن يكون عرضةً للأذى والملاحقة». (2)

---

(1) عباس، إحسان. (1978م). **اتجاهات الشعر العربيّ المعاصر**. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة: 2). ص: 121.

(2) حداد، علي. (1986م). **أثر التراث في الشعر العراقي الحديث**. بغداد: دار الشئون الثقافية العامة. ص: 76.

وقد كان للشاعر عبد الوهاب البيَّاتيّ يدٌ طُولى في استخدام تقنية القناع، هذا التحديث الشعريّ، فهو من أكثر الشعراء الذين استخدموا تقنية القناع في التعبير عن تجاربهم الشعريَّة، وقد تحدَّث عنها نظريًّا في حديثه عن تجربته الشعريَّة، مبينًا أنَّه كان يحاول إيجاد أسلوب شعري جديد، فجعل يبحث عن الأقنعة الفنيَّة المناسبة التي وجدها في التاريخ والرمز والأسطورة التي اتخذها قناعًا للتعبير عن المحنة الاجتماعيَّة والكونيَّة. (1)

وقد ذكر أمثلة كثيرة للشخصيَّات التاريخيَّة التي اتخذها قناعًا على اختلاف أنماطها، ثم قال: «حاولتُ أن أقدم البطل النموذجيَّ في عصرنا هذا، وفي كل العصور في موقفه النهائيِّ، وأن أستبطن مشاعر هذه الشخصيَّات النموذجيَّة في أعمق حالات وجودها، وأن أعبر عن النهائي واللانهائي، وعن المحنة الاجتماعيَّة والكونيَّة التي واجهها هؤلاء، وعن التجاوز والتخطِّي لما هو كائن إلى ما سيكون، ولذلك اكتسبت هذه القصائدُ البعدَ الجديد، الذي يجعلها تولد من جديد، كلما تقادم بها العهد». (2)

والواقع أنَّ البيَّاتيّ تفنَّنَ في استعارة الشخصيَّات التي اتخذها قناعًا، ونوَّع فيها ما وسعه التنويع، فجاءت ما بين شخصيَّات أدبيَّةٍ سواءً من العرب مثل: طرفة بن العبد، وأبي العلاء المعريّ، وديك الجنِّ الحمصي، ووضاح اليمن، وأبي فراس الحمداني، والحلاج، أو من غير العرب، مثل: جلال الدين الرومي، فريد الدين العطّار، حافظ شيرازي، أو شعراء معاصرين مثل: السَّيَّاب والخيَّام، وناظم حكمت ولوركا، أو شخصيَّات تاريخيَّةٍ مثل: الإسكندر المقدوني وزرادشت، أو شخصيَّات أسطورية مثل: سارق النار وعشتار وأورفيوس، أو شخصيَّات مجهولة مثل: مذكرات رجل مجهول... وغيرها، وهو ما يجعل تجربة القناع في شعره من أثرى التجارب

(1) انظر: البيَّاتيّ، عبد الوهاب. (1979م). **ديوان عبد الوهاب البيَّاتيّ**. ط3. بيروت: دار العودة. ج: 2، ص: 36-37.

(2) المصدر السابق، ج:2، ص: 38-39.

الفنيَّة التي كان إحدى العلامات المميزة في استخدامها في الشعر العربيّ الحديث، «ولعل البيَّاتيّ قد استطاع من خلال استحضاره لكثير من الشخصيَّات التي كان لها حضورٌ قويٌّ قديمًا وحديثًا، ومن خلال توحُّده مع الشخصيَّات الأكثر فاعليَّة في التاريخ الإنساني: المعري، والحلاج، والمتنبِّي، ولوركا، وناظم حكمت... أن يكسب تجربته الشعريَّة شمولًا إنسانيًّا رحيبًا، وذلك حين جعلها تجتاز حدود أزمنتها وأمكنتها، كما استطاع أن يحقق لتجربته هذه اصالة وعراقة وديمومة، عن طريق إكسابها بعدًا حضاريًّا عالميًّا، وأن يوفِّر لها طاقاتٍ إيحائيَّةً كبيرة». (1)

الشَّاعر لا يريد الهجاء المباشر للواقع الذي حوله، ربما لمحاذيرَ سياسيَّةٍ وأمنيَّةٍ، وإنما يتقنَّع خلف شخصيَّة تمثل نموذجًا للطهر والعفاف، وكأنَّه يهجو نقيضها اقتضاءً، يقول إحسان عباس: «خذ مثلا أبا العلاء، تجد إخلاصه للمبدأ، وترفُّعهَ عن المدح والتملُّق، وذمَّه للفساد في الحكَّام صورة واضحةً ساطعةً تستدعي منك دائمًا أن تذكر الصورة الأخرى القائمة من حوله، والتي تمثل النفاق والكذب والتملق والتهريج وبيع النفس والضمير، فلو أنَّ الشَّاعر رسم صورة أبي العلاء، و لم يذكر شيئًا عن الصورة الأخرى، لظلَّت هذه الثانية مستدعاة في خاطر القارئ، بقوة المفارقة القائمة بين أصالة الرمز الكبير، وتفاهة الواقع من حوله». (2)

ثانيًا: الزَّمان والمكان: عاصر البيَّاتيّ مرحلةً مريرةً من تاريخ الأمة العربيّة، فقد رأى بأمِّ عينه وأد الحلم العربيّ في التوحُّد والتحرُّر، وشاهد كيف تمزَّقَت البلاد العربيّة عامة ووطنه العراق خاصَّة الذي مات قبل أن يراه محتلا بأيدي الأمريكيين وأحلافهم عام 2003م، وتابع مراحل نشأة الكيان الصهيونيّ الغاصب على أرض فلسطين

(1) حلبي، أحمد طعمة. (2008م). **تناصُّ الشخصيَّات في شعر البيَّاتيّ**. الكويت: مجلة البيان، العدد: 456. ص: 26.

(2) عباس، إحسان. (1966م). **الصورة الأخرى في شعر البيَّاتيّ**. بيروت: مجلة الآداب، السنة: 14، العدد: 3. ص: 31.

المحتلَّة، وتألَّم لما صارت إليه جلُّ الحكومات العربيّة، حيث باتت ألعوبة بيد الغرب، ولذلك تنضح دواوينُه بمفردات الثورة على الحكَّامِ الطُّغاةِ من تُجَّار السياسةِ، وسماسرةِ الحروب، وقَتَلَةِ الحرِّيَّات.

وقد نشرت القصيدة عام 1970م، بعد الهزيمة الكبرى للجيوش العربيّة في حرب 5 يونيو 1967م، والتي اشتهرت باسم "النكسة"، والتي كانت نقطة تحول كبير في تاريخ هذا الصراع، وغيَّرت المنطقة تغييرًا جذريًّا، وأحدثت فيها جرحًا لم يندمل حتى الساعة، وحسبك أنَّ احتلال القدس الشرقيَّة والاستيلاء على المسجد الأقصى المبارك كان فيها، بل أحدثت في العقل العربيّ تغييرًا كبيرًا من حيث القناعات الفكريَّة، والتوجُّهات النفسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة وغيرها، فقد لاحظ كثيرٌ من المتابعين أنَّ كثيرًا من الكُتَّاب والمفكرين قد غيَّروا قناعاتهم، فحدثت تحولات كبيرة من الفكر القومي وبخاصة التيار الاشتراكي إلى تيارات فكرية أخرى، على رأسها التيار الإسلاميّ.

ولا تخطئ عينٌ بصيرةٌ النبرةَ الحزينةَ التي تسيطرُ على القصيدة، ولا يغيب عنها أنَّ الشعورَ بالضياع وخيبة الأمل واضح من مفتتح القصيدة إلى مختتمها، وهو ما يعادل معادلا موضوعيًّا للحلم العربيّ الذي تبخَّرَ، والأمل الموءود في فجر قادم، حيث كانت الزعامات الفارغة لا تتوقف عن العنتريَّات الزاعقة، التي تهدد إسرائيل "المزعومة"، فبات العرب هم المزعومين!

ولا أدري هل أنشأها الشَّاعر قبل وفاة الرئيس المصري: جمال عبد الناصر في الثامن والعشرين من سبتمبر عام 1970م أو بعدها، فإنْ كان بعدها –وهو ما أميل إليه– فإنَّ الرجل كان يرثي بها الحلم العربيّ الذي كان مُصَوَّرًا في شخصيَّة جمال عبد الناصر في عقول كثير من العوامِّ، فضلا عن التيار الاشتراكي الكاسح وقتئذٍ، ولا ننسى أنَّ إقامة البيَّاتيّ في القاهرة كانت باعتباره ضيفًا شخصيًّا على الرئيس نفسه، وقد دخل مصر أول ما دخلها بتأشيرةٍ استثنائيَّةٍ منه شخصيًّا؛ لأنَّ جواز سفره كان منتهي الصَّلاحية، وأقام فيها إقامةً سعيدةً جعلته يضمُّ القاهرة إلى

بغداد ضمن الأماكن الأكثر تأثيرًا في شخصيته، بل يرفعُ دور القاهرة على دور بغداد؛ لأنَّ دور القاهرة جاء في مرحلة نضجه الفنيّ، حيث يقول: «أستطيع أن أقول: إنَّ أهمَّ مدينتين في حياتي منحتاني القدرة على التطوُّر والخلق والإبداع وتجاوز نفسي هما بغداد والقاهرة، ولكنِّي أعتبر مرحلة القاهرة أهمَّ من مرحلة بغداد؛ لأنَّها جاءت بعد عشر سنوات من "أباريق مهشَّمة"... عندما وصلْتُ إلى القاهرة كانت المرارةُ تطفح في نفسي، وكنتُ أشعر أيضًا أنَّني سأولد من جديد، ولكنِّي لن أولد كإنسان أو شاعرٍ لا يمتُّ إلى الشاعر الأول الذي كنتُه بصلةٍ، بل سيولد من رماده شاعرٌ جديدٌ، والقاهرة كانت هي الأرض الصلدة التي منحتني هذا الشعور، وأعادتْ إليَّ الثقةَ لا بنفسي، ولكنَّ الثقة في التمرُّد والعصيان والاستمرار». (1)

ومكانُ القصيدة لا ينفصلُ عن زمانها، فعلاوة على ما ذكر في الزمان، فإنَّ القاهرة بها ضريح الإمام الشَّافعيّ، ولعلَّ الرجل كان يزوره كثيرًا بسبب ارتباطه بالمساجد التاريخيَّة ذات الأضرحة منذ طفولته في بغداد حيث يقول: «لقد بدأتْ معرفتي بالعالم في الحيِّ الذي نشأتُ فيه ببغداد بالقرب من مسجد الشيخ عبد القادر الجيلاني وضريحه، وهو أحد كبار المتصوِّفة، كان الحيُّ يعجُّ بالفقراء والمجذوبين والباعة والعمال والمهاجرين من الريف والبرجوازيِّين الصغار، كانت هذه المعرفة هي مصدر ألمي الكبير الأول. كان منظر الموت هو المنظر المألوف لديّ، فالأبقار والجواميس والجمال والأغنام كانت تُقادُ إلى المسلخ، حيث تقدَّم هدايا ونذورًا إلى مقام الجيلاني، وتعدُّ منها الأطعمة التي ينتظرها الجوعى والمساكين وبعض الزُّوَّار الذين قدموا للطوَّاف في ضريح الشيخ». (2)

فإذا أضفت إلى ذلك ميلاد دراسة الدكتور سيد عويس الآنفة الذكر عن ظاهرة إرسال الرسائل إلى ضريح الإمام الشَّافعيّ، وإحداثها ضجيجًا إعلاميًّا كبيرًا، وحصول صاحبها على جائزة الدولة التشجيعيَّة، ممَّا كان له أثرٌ في تنامي هذه

(1) البيَّاتيّ، عبد الوهاب. (1999م). **ينابيع الشمس: السيرة الشعريَّة**. دمشق: دار الفرقد. ص: 66-67

(2) المصدر السابق. ص: 14.

الظاهرة، وزاد ذلك التنامي بعد وقوعِ النَّكسةِ الـــمُوجعةِ أو النَّكبةِ الثانيةِ عام 1967م التي زادتْ من الشعور بالألم والضياع، فلعلَّ كثيرًا من الناس أوغلوا في هذه الظاهرة، وبدلا من الدعوة على المعتدي على حقِّهم الخاصّ توجهَّوا إلى الدعوة على المعتدي على الأمَّة بأسرها، وبدلًا من المطالبة بالانتقام الشَّخصيِّ من المعتدي بإحداث أمراض جسيمة كالشلل والعمى، أو تخريب الديار، أو تشتيت الشمل، أو التفريق ونحوها، لعلَّهم طفقوا يطالبون بالقضاء على إسرائيل قضاءً مبرمًا لا يذرُ على الأرض من الصهاينة ديَّارًا!

ثالثًا: الشخصيَّة الـــمُستَدْعَاة: اختيار شخصيَّة معينة من أجْلِ اتخاذها قناعًا من أصعب الأمور في عملية الإبداع، حتى لا تتحوَّل المسألةُ إلى حليةٍ ظاهريَّةٍ كزخارف البديع في حقبة طويلةٍ من تاريخنا الأدبيّ، وربما لا أكون مخطئًا إذا قلت إنَّ البيَّاتيّ هو الشَّاعر الوحيد فيما أعلم الذي استدعى شخصيَّة الإمام الشَّافعيّ، وهو ما يثير التعجب حقًّا، فنحن نفهم استدعاءه لبعض الشخصيَّات مثل الحَّلاج الذي قتل وصلب في سبيل فكره، أو المعري الذي أوسع حكام زمانه نقدًا، أو المتنبي الذي قضى حياته مغتربًا مثله، أو عمر الخيَّام في احتجاجه على الظلم الاجتماعيّ والتفاوت الطبقي، ولكن فيم الرسائل الموجَّهة إلى ضريح الإمام الشَّافعيّ؟

يثني كثيرٌ من النُّقَّادِ على إبداعِ البيَّاتيّ في اختياره للشخصيَّات التي يتخذها قناعًا، يقول حامد أبو أحمد: «البيَّاتيّ لم يكن أبدًا شاعرًا يعيش في برجٍ عاجيٍّ، أو يجري وراء الكلمات المنمَّقة، وإنَّما ظلَّ دائمًا في حالة انفعالٍ بما يحدث في العالم، يعيش في جوٍّ من المعاناة القاتلة، يطير بها من منفى إلى منفى، فإنَّ هذا -كما يقول- قاده إلى الأسلوب الشعريّ الجديد، وهو أسلوب القناع. لقد حاول أن يوفِّق بين ما يموت وما لا يموت، بين المتناهي واللامتناهي، بين الحاضر وتجاوز الحاضر، وتطلَّب

هذا منه معاناةً طويلةً في البحث عن الأقنعة في التاريخ والرمز والأسطورة، وكان في هذا الاختيار يهدف إلى التعبير من خلال قناعٍ عن المحنة الاجتماعيَّة والكونيَّة».[1]

ويقول أحمد طعمة حلبي: «لم يكن اختيار البيَّاتيّ للشخصيَّات التي يستحضرها عبثًا، بل كان مقصودًا ودقيقًا، فالبيَّاتيّ لا يستحضر إلا الشخصيَّة ذات الحضور القويّ والفاعل قديمًا وحديثًا، غير أنَّ اهتمام البيَّاتيّ بالشخصيَّات التي تحمل طابع التمرُّد والثورة على القيم السائدة كان أكبر من اهتمامه بالشخصيَّات الأخرى». [2]

ولكن هل تنطبق هذه الأحكام على استدعائه شخصيَّة الإمام الشَّافعيّ؟

في الحقيقة لا يكاد يظهرُ عنصر الثورة والرفض والتمرُّد على القيم في حياة الإمام الشَّافعيّ، فلم تكن له نزعة ثوريَّة فيما نعلم، بل هو يُعَدُّ أقل الفقهاء الأربعة محنةً، فقد ابتلى الأئمة الثلاثة الآخرون ابتلاءات شديدة، وعذبوا في سبيل مبادئهم تعذيبًا مؤلـــمًا، وهو ما لم يحدث مع الإمام الشَّافعيّ الذي كان مَرْضِيًّا عنه من جانب أولى الأمر، اللهم إلا محنة يسيرةً بسبب وشاية أحد الوشاة المغرضين في اليمن بتهمة التخطيط للانقلاب على حكم العباسيِّين لصالح الطالبيِّين، مما جعل الوالي: حماد البربريّ يقبض عليه، ويسوقه مُقَيَّدًا إلى العراق، ليمثل أمام الخليفة هارون الرشيد (ت193هـــ)، لكنَّ الإمام دافع عن نفسه أمام الخليفة بقوة وبيان، فعفا عنه، وأكرمه. [3]

وفِقْه الإمام الشَّافعيّ لا يحمل ثورةً كاملةً بالمعنى الحرفيّ، وإنما هو إمام مجتهد كغيره من الأئمة المجتهدين، وكلهم له رصيده المعتبر من التجديد الفقهيّ، ولو كان

---

(1) أبو أحمد، حامد. (1990م). **بستان عائشة ومرحلة جديدة في شعر عبد الوهاب البيَّاتيّ**. القاهرة: الهيئة المصرية العامَّة للكتاب، مجلة إبداع، العدد: 7-8. ص:8.

(2) حلبي، أحمد طعمة. (2008م). **تناصُّ الشخصيَّات في شعر البيَّاتيّ**. الكويت: مجلة البيان، العدد: 456. ص: 18.

(3) تراجع تفاصيل هذه المحنة في: الدقر، عبد الغني. (1417هـــ/ 1996م). **الإمام الشَّافعيّ: فقيه السنة الأكبر**. ط6. دمشق: دار القلم. ص: 99-106.

أمر التمرد لكان أولى بذلك الإمامان اللذان عاشا في العراق، وعذبا في سبيل رأيهما، أعنى الإمام أبا حنيفة (ت150هـ)، والإمام أحمد بن حنبل (ت241هـ) رضي الله عنهما.

وليس بخافٍ بُعْدُ البَوْنِ ما بين شاعرٍ ينتمي إلى الفكر الاشتراكيّ، ويفسر كل شيء في الحياة في إطار الصراع بين الطبقة البرجوازيَّة الثريَّة وطبقة البروليتاريا الكادحة، وفقيه يدعو إلى التصالح بين هاتين الطبقتين اللتين بهما قوام الحياة، فأوجب على الأغنياء حقًّا معلومًا ونصيبًا مفروضًا لصالح الفقراء؛ استلالا لسخائم صدورهم، وغرسًا للمحبة والوئام في المجتمع.

ولا تكاد تتماهَى الشخصيَّة المختارة مع الفكرة المحوريَّة أو الثيمة (Theme) المسيطرة على القصيدة، أعنى ثيمة الخيبة والضياع، فقد عاش الإمام الشَّافعيّ في العصر العباسي الأول، والدولةُ الإسلامية في ريعان شبابها، ومُلْكها يمتد من حدود الصين إلى قلب أوروبا، وملوك العالم يخشون بأس المسلمين، ويعملون لهم ألف حساب وحساب، وهو ما يتناقض مع الظروف المأساوية التي ولدت فيها قصيدة البيَّاتيّ، والنزعة التشاؤميَّة الحزينة المسيطرة على القصيدة!

وأمَّا التصوف الذي جعل البيَّاتيّ يستدعي شخصيَّة الحلاج أو محيي الدين بن عربي، بل يوصي بأن يدفن عند ضريح ابن عربي في دمشق، وهي سمة ملحوظة، حيث قال الشاعر نفسه عن استدعائه لشخصيَّة عائشة محبوبة الخيَّام: «هكذا كانت عائشة في شعري رمزًا للأنوثة والثورة والأسطورة وصنو التصوف، فهي مركب إنساني جديد، ولد من كل الأشياء، وأصبح كائنًا جديدًا ستولد منه أشياء جديدة».[1]

وأكدها حاتم الصكر في مقاله عنه في ذكرى وفاته قائلا: «فوجد ضالته في النصوص الصوفيَّة، التي تحكي عن حياة الصوفيَّة ومواجدهم، ورغبتهم في الفناء في

(1) البيَّاتيّ، عبد الوهاب. (1999م). **ينابيع الشمس: السيرة الشعريَّة**. دمشق: دار الفرقد. ص: 166.

المحبوب، والاحتراق من أجل ذلك، كما تفعل فراشات النار في سعيها لاكتشاف كنه النار وجوهرها، فتدفع حياتها ثمنًا لحب المعرفة». (1)

ولكن الإمام الشَّافعيّ رضي الله عنه لم يكن من أولئك الصوفية المتفلسفين في شيء؟

وأما عنصر النقاء المنشود الذي كان يردده، فهو فيه شريك لغيره من الأئمة وغيرهم من الدعاة والفقهاء والمفسِّرين والمحدثين والزهَّاد الذين كانوا يملؤون جنبات الدولة الإسلامية، مع ضرورة التنبه إلى أنَّ القصيدة تكاد تخلو من التأكيد على عنصر النقاء المنشود!

ولعلَّ الرابط الأبرز الذي يربط الشَّاعر بالشخصيَّة المستدعاة هو الهجرة المتصلة، فقد تنقل الإمام الشَّافعيّ بين غزة ومكة والعراق واليمن ومصر التي استقر فيها ودفن في ضريحه الكائن بها حتى السَّاعة، وهو ما يشبه إلى حد كبير رحلة حياة البيَّاتيّ الذي قضى حياته رحَّالة تتقاذفه الأسفار من بلد إلى بلد، ممَّا جعل مفردات الهجرة والمنافي والسفر تشكل حضورًا ملحوظًا في شعره كلِّه، علمًا بأنَّ الإمام الشَّافعيّ كان يدعو إلى السفر، وهي سمةٌ ملحوظةٌ ومكررةٌ في شعره، نكتفي للتدليل على ذلك بقوله:

مَـا فِـي الـمَـقَـامِ لِذِي عَـقْـلٍ وَذِي أَدَبِ * مِـنْ رَاحَـةٍ، فَـدَعِ الأَوْطَـانَ، وَاغْـتَـرِبِ**

سَـافِـرْ تَـجِـدْ عِـوَضًـا عَـمَّنْ تُـفَـارِقُهُ * وَانْـصَـبْ؛ فَـإِنَّ لَذِيـذَ العَيْشِ فِي النَّصَبِ**

إِنِّـي رَأَيْـتُ وُقُـوفَ الـمَـاءِ يُـفْـسِـدُهُ * إِنْ سَـاحَ طَـابَ، وَإِنْ لَـمْ يَـجْـرِ لَـمْ يَـطِـبِ**

(1) الصكر، حاتم. (2016م). **في ذكرى غياب عبد الوهاب البيَّاتيّ**. الإمارات، الشارقة: مجلة الشارقة الثقافية، ع: 2. ص: 86.

وَالأُسْدُ لَوْلَا فِرَاقُ الأَرْضِ مَا افْتَرَسَتْ * وَالسَّهْمُ لَوْلَا فِرَاقُ القَوْسِ لَمْ يُصِبِ**

وَالشَّمْسُ لَوْ وَقَفَتْ فِي الفُلْكِ دَائِمَةً * لَمَلَّهَا النَّاسُ مِنْ عُجْمٍ وَمِنْ عَرَبِ**

وَالتِّبْرُ كَالتُّرْبِ مُلْقًى فِي أَمَاكِنِهِ * وَالعُودُ فِي أَرْضِهِ نَوْعٌ مِنَ الحَطَبِ**

فَإِنْ تَغَرَّبَ هَذَا عَزَّ مَطْلَبُهُ ***

وَإِنْ تَغَرَّبَ ذَاكَ عَزَّ كَالذَّهَبِ (1)

والبيَّاتيّ عاش متقلبًا بين البلدان اختيارًا أو نفيًا، مؤكدًا أنَّ تلك المنافي لم تنل منه شيئًا، حيث يقول: «و لم تأخذ الغربة ولا النفي مني شيئًا، بل منحاني الحصانة ضدَّ التفاهةِ والعدميَّةِ والمجَّانيَّة، ومنحاني القوة في مواجهة الشرِّ والذل الكونيّ». (2)

فهذا هو الرابط المنطقي الأبرز بين الشخصيتين، وتبقى دراسة الدكتور سيد عويس في تقديري على قمة العوامل الكامنة وراء اختيار هذه الشخصيَّة دون غيرها، متابعةً للموجة العارمة من النقاش العلميّ التي أحدثتها الدراسة في الأوساط الثقافيَّة المصرية.

رابعًا: التقييم الفنيّ: هل وُفِّقَ عبدُ الوهَّاب البيَّاتيّ في استدعاء شخصيَّة الإمام الشَّافعيّ من خلال توظيف ظاهرة الرسائل المرسلة إلى ضريحه؟

في الحقيقة أرى أنَّ هذه القصيدة من أضعف قصائد البيَّاتيّ التي وظَّف فيها تقنية القناع، والتي استدعى فيها شخصيَّة تراثيَّة، حيث وقع في عدة مزالق فنيَّة، أهمها:

---

(1) الشَّافعيّ، أبو عبد الله محمد بن إدريس. (2017م). **ديوان الإمام الشَّافعيّ**. تحقيق: عبد الحميد عبد الرحمن حسو. دمشق: دار أمل الجديدة. ص: 73-74.

(2) البيَّاتيّ، عبد الوهاب. (1999م). **ينابيع الشمس: السيرة الشعريَّة**. دمشق: دار الفرقد. ص: 61.

(1) **التأويل البعيد:** من أهم الضوابط الفنيَّة لنجاح تقنية استدعاء الشخصيَّة التراثية قوة العلاقة بين الشخصيَّة المستدعاة والتجربة الفنيَّة المراد التعبير عنها، فعنترة بن شداد يصلح أن يكون معادلًا موضوعيًّا لفكرة القوة أو الثورة أو الحب، فكلها ملامح منظورة في سيرته، ولكنَّه لا يصلح للتعبير عن فكرة الانكسار والضياع مثلا، و "سيزيف" يصلح أن يكون رمزًا للعذاب والمعاناة، ولا يصلح أن يكون معادلا لفكرة الحب والولاء، و"بروميثيوس" يمكن أن يكون رمزًا للعلم والمعرفة، ولا يصلح أن يكون معادلا للقسوة المفرطة، و"جيفارا" يصلح أن يكون رمزًا للثورة، ولا يصلح أن يكون معادلا للخيانة... وهكذا. وهي مسألة قد يغفل عنها بعض الشعراء، فكثيرًا «ما يحدث أنَّ بعض الشعراء يؤولون ملامح بعض الشخصيَّات تأويلا خاطئًا، ويستخدمون بعض الشخصيَّات في التعبير عن معان لا تصلح هذه الشخصيَّات للتعبير عنها؛ إذ لا بدَّ أن تكون في الشخصيَّة المستدعاة سمة دالة، نستطيع من خلالها أن نعبِّر عن المدلولات المعاصرة التي يراد توظيف الشخصيَّة في التعبير عنها، فقد تصلح شخصيَّة في التعبير عن جانب معين من جوانب تجربة الشاعر المعاصر، ولكنَّها لا تصلح للتعبير عن جانب آخر». [1]

ومن الواضح أنَّ الفكرة الرئيسة لقصيدة البيَّاتيّ هي فكرة الضياع والشرود على المستويين العام والخاص، فعلى المستوى العام كان العالم العربيّ كله يقع تحت وطأة أحزانٍ رهيبة بعد النكبة الموجعة عام 1967م، والتي أسفرت عن احتلال القدس، وتدنيس المسجد الأقصى، فضلا عن احتلال الضفَّة الغربية وقطاع غزة وسيناء والجولان، وعلى المستوى الخاص كان الشاعر يعيش خارج وطنه، ويرى تقلبات الساسة تأخذه ذات اليمين وذات الشمال؛ كأنَّه سفينة تتقاذفها الأمواج، أو ريشة في مهب الريح، وهي ملامح لا نجد لها صدًى في حياة الإمام الشَّافعيّ، سواءً على المستوى العام، فالأمة كانت في أوج قوتها، أو على المستوى الخاصّ،

(1) زايد، على عشري. (1417هـ/ 1997م). **استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربيّ المعاصر**. القاهرة: دار الفكر العربيّ. ص: 292. (بتصرُّف).

حيث كان الإمام مرحَّبًا به في شتَّى أصقاع العالم العربيّ، وملمح الهجرة المذكور آنفًا كرابط بين الشخصيتين لا يوجد في النصّ ما يجعله فكرة رئيسة، والرسائل المرسلة إلى قبر الإمام الشَّافعيّ بعيدة عن فكرة الإحباط إلا أن يكون الشاعر رأى فيه المخلِّص من هذه النكبة الماحقة، وهي فكرة لا علاقة للإمام الشَّافعيّ نفسه بها من قريب أو بعيد، بل ينكرها الإمام الشَّافعيّ، وجمهور أهل السنة كلَّ الإنكار.

(2) **تكديس الشخصيَّات**: التجربة الفنيَّة الناجحة يعمل فيها الشاعر على امتصاص الشخصيَّة المستدعاة، واستخراج لباب جوهرها، وإسقاطه على الفكرة الرئيسة في تجربته، وهذا لا يتحقَّق إلا بالتركيز على شخصيَّة واحدة، تتماهى مع الفكرة، لكنَّ بعض الشعراء المفتونين بهذه التقنية يسقطون في مزلق «تكديس الموروثات، وإثقال كاهل القصيدة بمجموعة من أسماء الشخصيَّات، الأمر الذي لا يدع فرصة لأيَّة من هذه الشخصيَّات أن تنصهر في وهج التجربة؛ لتنبض بما فيها من مشاعر وأحاسيس وخطرات، وتظلُّ مُقحمةً على القصيدة، ومفروضةً عليها من الخارج، وعاجزةً عن أن تأخذ مساراتها الشعوريَّة والنفسيَّة في وجدان المتلقِّي ووعيه». (1)

والواقع أنَّ البيَّاتيّ أسرف في ذكر شخصيَّات لا علاقة لها بالموضوع، حيث قفز فجأة إلى الرياض التي في مدينة شيراز، حيث عائشة "محبوبة الخيام" التي اتخذها رمزًا للطهر والنقاء، وهو ما يعدُّ بعيدًا عن تجربة الخيبة والضياع، وأقحم شخصيَّة الحسين التي يمكن استعارتها في مواطن الثورة والتضحية من أجل المبدأ، وقفز إلى شخصيَّة الإسكندر الأكبر الذي عاد من الهند؛ ليموت في بابل بأرض العراق، وأنا أفهم أنَّه يمكن صياغة تأويلٍ ما يسوِّغ إقحام هذه الشخصيَّات في سياق الخيبة والضياع الذي يسيطر على القصيدة، ولكنَّ تكديس هذه الشخصيَّات، يشعر القارئ أنَّها مفروضة عليها من الخارج، أو مُقحمةً فيها إقحامًا، ولو أنَّ الشاعر قد اتخذ من الحسين مثلا مُعادلا موضوعيًّا لتجربته كما فعل شعراء آخرون على رأسهم

(1) المصدر السابق، ص: 287.

بلديَّه وأستاذه بدر شاكر السيَّاب، أو كتاب مسرحيُّون على نمط عبد الرحمن الشرقاويّ في مسرحيَّتيه المتميزتين: الحسين ثائرًا، والحسن شهيدًا، لكان أدخل في الفنّ، وأبعد عن التكديس الـــمُصْطَنع.

(3) **السَّطحيَّة**: الأديب الفذُّ هو الذي ينفذ إلى أعماق الشخصيَّة، وينجح في إحداث عناق حميم بين الشخصيَّة القديمة والتجربة المعاصرة، وهذا يتمُّ عن طريق التعانق التاريخي، والتعالُق النَّصِّيّ أو (التناصّ)؛ ليثبت أنَّ الشخصيَّة التي استدعاها شخصيَّة ثريَّةٌ وقادرةٌ على العطاء الفنيّ، والواقع أنَّ البيَّاتيّ لم يقمْ بالتناصِّ مع أي مقولة للإمام الشَّافعيّ من تراثه الهائل شعرًا ونثرًا، ولكن الشاعر عزف عن ذلك كلِّه، فلم يتعلق نصيًّا مع أي بيت من شعره، و لم يستدعِ أيَّ مقولةٍ من نثره، ولولا العنوان لأمكن تأويل القناع بشخصيَّة أخرى من الشخصيَّات التراثية، مما يجعلنا نعتقد أنَّه لم يأخذ من شخصيَّة الإمام الشَّافعيّ سوى العنوان، وكأنَّه وقع هذه المرة تحت سطوة المقدَّس، فولَّى وجهه شطر هذه الشخصيَّة الدينيَّة الكبيرة، وأراد إعادة إنتاجها في صورة عصريَّة، وهو ما أشار إليه شوقي بهنام في قوله: «يمكن أن يكون البيَّاتيّ قد قرأ أحد المقدسات في ضوء الآخر، مثل قراءته لكتاب "الطَّواسين" للحلاج على ضوء المنظور الماركسيّ، وجعل من الحلاج والذي تماهى به شاعرنا أباً للفقراء... للجياع... للمشردين، وباختصار أبناء البروليتاريا... ضحايا هذا العالم، الذي لا تسوده إلا رياح باردة وثلج، وكثيرة هي الشواهد التي تعج بها أمثال هذه المفردات». [1]

(4) **الغموض**: تنوَّعتْ مستويات الغموض في الشعر العربيّ القديم، ابتداءً من غموض المفردات والتراكيب، ومرورًا بغموض الصورة الفنيَّة بكل عناصرها، وانتهاءً بتجارب مبنية على الأحاجي والألغاز حتى استقلّ للعرب علم التعمية

(1) بهنام، شوقي يوسف. **البيَّاتيّ وسطوة المقدس: رؤية نفسيَّة**. موقع مجلة "ندوة" للشعر المترجم. (آخر زيارة 2022/1/26م) على الرابط: https://arabicnadwah.com/bookreviews/bayyati-banham.htm

واستخراج المعمَّى، لكن الشعر الحديث اتخذ من الغموض فلسفة مبناها تورية المعنى بطريقة تفتح الباب أمام تعدد القراءات والتأويلات، بل تحول القصيدة إلى غابةٍ ذات أحراش غامضةٍ، تجعل الدخول في غياباتها مغامرةً غير محسوبة المخاطر. وقد استخدم الشعراء تقنيات فنيَّة كثيرة لتحقيق هذه الغاية منها: التكثيف، والرمز، والأسطورة، والقناع، والتناصّ... وغيرها، حتى أعلن نفرٌ من الشعراء المعاصرين أنَّ "الغموض هو العنصر الأساس في الشعر المعاصر، كما كانت الموسيقى عنصره الأول قديمًا، وأنَّ الإيضاح والبوح بكامل الأشياء يُعرِّي هذه الأشياء من مثاليَّتها وجمالها الأرفع، ومن مسحة الحلم الجميل، ويخلق جوًّا خياليًّا منطويًا على كلِّ عجيبٍ مبهمٍ». [1]

وقراءة قصيدة البيَّاتيّ المدروسة تمثل تحدِّيًا أمام غير المتمرسين بقراءة الشعر العربيّ الحديث، وما أحسبُ أحدًا من القراء يستطيع أن يفهم من المقطع الأول أنَّ قوارب الصيد رمزٌ للمغامرة في سبيل المعرفة، وأنَّ برتقالة الشمس الملقاة على الأمواج، والمحفورة بالنار رمزٌ لنور العلم الذي ينتظر المغامرين في نهاية رحلتهم، وأنَّ الطائرَ الذَّهبيَّ الذي يغمس في الموج جناحيه، ثم يهوي ميِّتًا عبر رمال الشاطئ الحمراء رمز للإمام الشَّافعيّ ذلك العالم المغامر صاحب الدور الكبير في إنارة دروب الشريعة لعموم المسلمين، وهو ما يجعل قراءة تلك النصوص ضربًا من المغامرة، وأحيانًا ضربًا من السباحة في بحار التأويلات التي لا تنتهي.

هذه المزالق الأربعة تجعل تقييم تجربة البيَّاتيّ في استدعاء شخصيَّة الإمام الشَّافعيّ سلبيًّا، فهي لا تعدو أن تكون تقليدًا فنيًّا لتقنية القناع التي يعد البيَّاتيّ من أبرز روادها تنظيرًا وتطبيقًا، ولكنَّه انساق في هذه التجربة مع الموجة التي أحدثتها دراسة سيد عويس، وعجز عن النفاذ إلى أعماق شخصيَّة الإمام الشَّافعيّ، أو إحكام العلاقة بينه وبين التجربة التي استدعاه من أجلها.

---

(1) العطوي، مسعد بن عيد. (1420هـ/ 1999م). **الغموض في الشعر العربيّ**. ط2. (د.ن). ص: 218. (بتصرُّف).

الخاتمة

بعد هذه الرحلة التفاعليَّة بين القديم والحديث، والعابرة للعصور من العصر الحديث إلى القرن الثاني الهجري، والعابرة للفنون من الشعريَّة الحديثة إلى العلوم الشرعيَّة، يطيب للباحث أن يرصد هذه النتائج:

- حمل شعراء العراق ومصر لواء تحديث الشعر العربيّ في القرن العشرين شكلًا ومضمونًا، فظهرت في هذين القطرين العريقين أول ما ظهرت قصيدة التفعيلة، وترسَّخت التقنيَّات التعبيريَّة الحديثة مثل: الرَّمز والأسطورة والقناع والمفارقة... وغيرها.
- كان لنشر عالم الاجتماع المصريّ الشهير د. سيد عويس دراسته المتميزة والغريبة التي عنوانها: "من ملامح المجتمع المصريّ المعاصر: ظاهرة إرسال الرسائل إلى ضريح الإمام الشَّافعيّ" عام 1965م دور كبيرٌ في لفت الأنظار إلى هذه الظاهرة الغريبة، ونعتقد أنَّها كانت أكبرَ ملهم للشاعر في كتابة قصيدته: رسائل إلى الإمام الشَّافعيّ.
- مهما اختلف القارئ مع البيَّاتيّ بسبب أيديولوجيَّته التي ظلَّ ينتمي إليها حتى آخر أنفاسه، فلا خلاف في أنَّه رائد من رواد الشعر العربيّ الحديث، وأنَّه كان محاربًا بسيف من نغم، وأنَّه علامة متميزة في مسيرة الشعريَّة العربيّة الحديثة.
- كان للشاعر عبد الوهاب البيَّاتيّ يدٌ طُولى في استخدام تقنية القناع في التعبير عن تجاربهم الشعريَّة، وقد تحدَّث عنها نظريًّا في حديثه عن تجربته الشعريَّة، وطبَّقها في عدد كبير من قصائده على شخصيَّات تاريخية قديمة وحديثة متنوعة المشارب والاتجاهات.
- نشر البيَّاتيّ قصيدته: "رسائل إلى الإمام الشَّافعيّ" عام 1970م، بعد الهزيمة الكبرى للجيوش العربيّة في حرب 5 يونيو 1967م، والتي اشتهرتْ باسم "النكسة"، والتي غيَّرت المنطقة تغييرًا جذريًّا، وأحدثتْ فيها جرحًا لم يندمل حتى السَّاعة، ولا تخطئ عين بصيرة النبرة الحزينة التي تسيطر على القصيدة، والشعور

بالضياع وخيبة الأمل واضح من مفتتح القصيدة إلى مختتمها، وهو ما يعدُّ معادلًا موضوعيًّا للحلم العربيّ الذي تبخَّرَ، والأمل الموءود في فجر قادم.

- قضى البيَّاتيّ فترةً من أخصبِ فتراتِ حياته الفنيَّة في القاهرة التي بها ضريح الإمام الشَّافعيّ، ولعلَّ الرجل كان يزوره كثيرًا بسبب ارتباطه بالمساجد التاريخيَّة ذات الأضرحة منذ طفولته في بغداد، مما حمله على كتابة تلك الرسائل.
- أثنى كثير من النقاد على موهبة البيَّاتيّ في استدعاء الشخصيَّات التاريخيَّة، ولكنَّ عوامل اختيار شخصيَّة الإمام الشَّافعيّ لتكون قناعًا لمعاني الثورة والرفض والتمرد، أو قناعًا للشعور بالخيبة والضياع، وأمَّا أنَّه قناع لمعاني الطهر والنقاء فهو عامل مشترك بينه وبين كثير من الأئمة في عصره وما تلاه.
- تعدُّ القصيدة مِنْ أضعفِ قصائد البيَّاتيّ التي وظَّف فيها تقنية القناع، والتي استدعى فيها شخصيَّة تراثيَّة، حيث وقع في عدَّةِ مزالق فنيَّة أبرزها: بُعْدُ التأويل، فالفكرة الرئيسة لقصيدة البيَّاتيّ هي قضيَّة الضياع والشرود على المستويين العامِّ والخاصِّ، وهي مسألةٌ ملامح لا نجدُ لها صدًى في حياة الإمام الشَّافعيّ خاصَّةً، أو في عصره عامَّةً.
- أسرف البيَّاتيّ في تكديس شخصيَّات لا علاقة لها بالموضوع، مما يشعر القارئ أنَّها مفروضة عليها من الخارج، أو مُقْحمة فيها إقحامًا.
- لم يأخذ البيَّاتيّ من شخصيَّة الإمام الشَّافعيّ فيما نعتقد سوى العنوان فحسب، وكأنَّه وقع هذه المرة تحت سطوة المقدَّس، فولَّى وجهه شطر هذه الشخصيَّة الدينيَّة الكبيرة، وأراد إعادة إنتاجها في صورة عصريَّة.
- قراءة قصيدة البيَّاتيّ تمثل تحدِّيًا أمام غير المتمرِّسين بقراءة الشعر العربيّ الحديث، بل تجعل قراءتها ضربًا من المغامرة، وأحيانًا ضربًا من السباحة في بحار التأويلات التي لا تنتهي.

المصادر والمراجع

آل جعفر، خالد. (1995م). **عبد الوهاب البيَّاتيّ: السيرة الذاتيَّة والأدبيَّة**. عمان، دار الشروق: مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات. ع: 5.

أبو أحمد، حامد. (1990م). **بستان عائشة ومرحلة جديدة في شعر عبد الوهاب البيَّاتيّ**. القاهرة: الهيئة المصرية العامَّة للكتاب، مجلة إبداع، العدد: 7-8.

بهنام، شوقي يوسف. **البيَّاتيّ وسطوة المقدس: رؤية نفسيَّة**. موقع مجلة "ندوة" للشعر المترجم. (آخر زيارة 2022/1/26م). على الرابط: https://arabicnadwah.com/bookreviews/bayyati-banham.htm

البيَّاتيّ، عبد الوهاب. (1995م). **الأعمال الكاملة**. بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر.

البيَّاتيّ، عبد الوهاب. (1979م). **ديوان عبد الوهاب البيَّاتيّ**. ط3. بيروت: دار العودة.

البيَّاتيّ، عبد الوهاب. (1999م). **ينابيع الشمس: السيرة الشعريَّة**. دمشق: دار الفرقد.

الجبوري، كامل سلمان. (1424هـ/ 2002م). **معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م**. بيروت: دار الكتب العلمية.

حداد، علي. (1986م). **أثر التراث في الشعر العراقي الحديث**. بغداد: دار الشئون الثقافية العامة.

حلبي، أحمد طعمة. (2008م). **تناصُّ الشخصيَّات في شعر البيَّاتيّ**. الكويت: مجلة البيان، العدد: 456.

خليل، أحمد خليل. (2001م). **موسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين**. بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر.

الدقر، عبد الغني. (1417هـ/ 1996م). **الإمام الشَّافعيّ: فقيه السنة الأكبر**. ط6. دمشق: دار القلم.

زايد، على عشري. (1417هـ/ 1997م). **استدعاء الشخصيَّات التراثية في الشعر العربيّ المعاصر**. القاهرة: دار الفكر العربيّ.

الشَّافعيّ، أبو عبد الله محمد بن إدريس. (2017م). **ديوان الإمام الشَّافعيّ**. تحقيق: عبد الحميد عبد الرحمن حسو. دمشق: دار أمل الجديدة.

الصكر، حاتم. (2016م). **في ذكرى غياب عبد الوهاب البيَّاتيّ**. الإمارات، الشارقة: مجلة الشارقة الثقافية، ع: 2.

عباس، إحسان. (1966م). **الصورة الأخرى في شعر البيَّاتيّ**. بيروت: مجلة الآداب، السنة: 14، العدد: 3.

عباس، إحسان. (1978م). **اتجاهات الشعر العربيّ المعاصر**. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة: 2).

العشري، جلال. (1967م). **شاعر الالتزام والاغتراب**. القاهرة: مجلة الفكر المعاصر. ع: 32.

العطوي، مسعد بن عيد. (1420هـ/ 1999م). **الغموض في الشعر العربيّ**. ط2. (د. ن).

عويس، سيد. (1978م). **رسائل إلى الإمام الشَّافعيّ** (ظاهرة إرسال الرسائل إلى ضريح الإمام الشَّافعيّ: دراسة سوسيولوجيَّة). ط2. القاهرة، الكويت، أمستردام: دار الشايع.

محمود، زكي نجيب. (1967م). **هذا العدد**. القاهرة: مجلة الفكر المعاصر. ع: 32.

المنظمة العربيّة للتربية والعلوم والثقافة. (1425هـ/ 2005م). **موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين**. بيروت: دار الجيل.